حوار مع عبد الوهّاب البياتي

«عن الطفولة»

أجرى الحوار
علي العامري

□ «أيّها الزورق، يا توأم نفسي
طال مسراك وراء الظلمات»

عبد الوهاب البياتي. . علامة جليّة من علامات الشّعر العربي الحديث، شاعرٌ لا تحدّه الجغرافيا وخطوطُ الطّول والعرض.

نبدأ معه من الزوارق الوَرَقيّة الّتي كان يُلقي بها في الزرقة الرقراقة، في الزرقة العامّة وفي الزرقة الخاصّة على حدٍّ سواء.

نبدأ من توأمه حيث الأماكن والأزمنة ترحل في روحه، تأتي وتغادر ناقشةً شهوةً متجدّدةً للشّعر/الحياة. المكان والزمان لا يغادران لكي يغادرا، بل ليفسحا الطّريق أمام مكان آخر وزمان آخر.

بعدما يقرب من نصف قرن من الاحتدام بالشرارات والالتحام بها وجَبْل طينة الغامض والبروق والمسافات واللّذة والتوابيت، بعد كلّ هذا. . هل يظلّ النّور نوراً والظلمات ظلمات؟

«أنشودة الماضي وتمثال الطفولة لي عزاءْ
وعرائس في فكري الخلّاق تحلم بالصفاءْ
وذبالة في الجانب المهجور تشرق بالبكاءْ
فتسود في نفسي السكينةُ
أين يا نفسي العزاءْ؟»

من اللّثغة الأولى للبرعم، نبدأ حديثنا هذا مع أبو علي/توأم الأجنحة وصديق المسافات.

«وجدوني عند ينابيع النّور قتيلاً، وفمي بالتوت الأحمر والورد الجبليّ الأبيض مصبوغاً وجناحي مغروساً في النّور».

وها هو البياتي يخاطب البياتي أيضاً:

«ها أنت تواجه نفسك في المرآة
بقميصك نار تشتعل الآن».

حيث «الآن» تصبح زمناً مترامي الأبعاد، راحلاً مثل سهم متشعّب في كلّ الجهات، وغائراً في معراجات «سيبرغ» الذات البياتيّة.

«ها أنت وحيد، مملوء بالغربة في هذا العالم، تخرج ليلاً من باب الفجر، لتبحث عمّن في النّوم رأيتَ، تحاول أن تجتاز الأفق وحيداً، بكوابيس نهار مات تعود، لتبدأ من حيث بدأت، لترفع هذي الصخرة نحو القمّة، في كلّ صباحٍ تشنق نفسك، لكنّ العنقاء بنار الشّعر تعود لتنفض عنك رماد الأشياء. . .».

هكذا تصبح الحياة شعراً والشّعر حياة، إذ لا برازخ بينهما. وهكذا أيضاً، وفي هذا الحوار، يهاجر أبو علي في ذاكرته إلى تضاريس طفولته، حيث الزوارق الورقيّة، الظلمات، الجنائز، عائشة، الأزرق الشاسع، الملامسات المحفورة، الألم، الذئاب، مفاتيح المعاني، الوجوه، المساحات المنذورة للأخضر، الدّم، النبوءات، جبال حمرين، الغزال الّذي انتحر، الطّقوس، الدّفتر الضّائع، النّار، دجلة وأسراب القطا الّتي تكتب قصائدها على ورق أزرق تماماً كأنّه السماء.

«أيّتها العرّافة
لاتكتبي فوق رمال الشّطّ ما أقول
فسيّد الآلام في المغارة
ينتظر الإشارة».

* * *

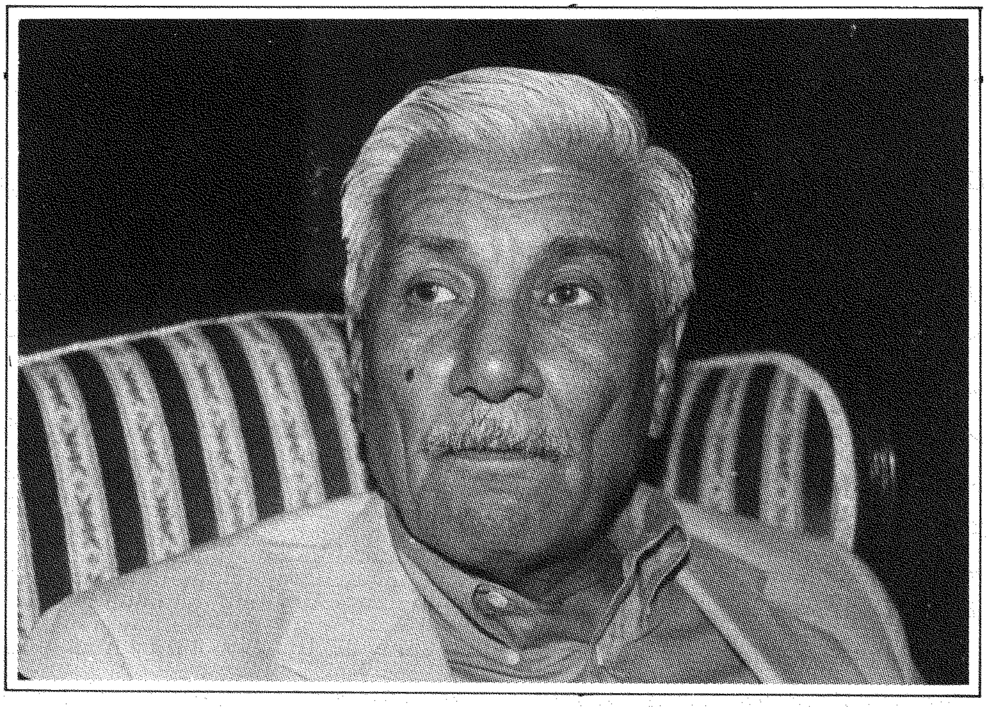

■ في معراج إلى قاع الذاكرة، ماذا يقول البياتي عن الأجنحة الأولى في هواء طفولته؟

ـ كانت ولاتزال سماء بغداد زرقاء في معظم فصول السنة، باستثناء شهرين من فصل الشتاء. وكنت أحبّ الجلوس في أعلى سطح بيت جدّي. كان السطح مكشوفاً عارياً، وأنا أحدّق في تلك السماء الزرقاء: في الطيور الأليفة الّتي كانت تعبر السماء أو في الطيور المهاجرة.

من أعلى السطح وفي مواجهة الأزرق الشاسع، كنت أتمنّى أن أرحل مع تلك الطيور إلى مكانٍ ما. كما كنت أتأمّل الغيوم الّتي تمرُّ عابرة كخيول أو كفراشات كبيرة.

في تلك الوحدة الزرقاء، كنت أتأمّل وأحدّق في داخل نفسي، فأضيع في متاهة لانهاية لها، فأشعر بالخوف، ثمّ أعود وكأنَّ كلاباً هي كلاب الموت أو سواها كانت تطاردني في تلك المتاهة.

وعندما تمطر السماء، كنت أتجوّل تحت المطر مصغياً إلى نحيب الميازيب. وغالباً ما كنت أخرج من حدود بغداد باتّجاه البرّيّة، بعيداً عن ضوضاء المدينة وصخبها، أخرج مخترقاً مقابر الشيخ أحمد الغزالي (شقيق الإمام الغزالي) قارئاً شواهد القبور. وكثيراً ما كنت أُعدّل بعض الشواهد الساقطة أو المائلة، وأقطف بعض الأزهار البرّيّة وأضعها على القبور. كما كنت أُعرّج على محطّة قطار باب الشيخ(الشيخ عبد القادر الجيلاني) لأتفرّج على مشهد المسافرين من عمّال وفقراء وجنود وأمّهات يحملن أطفالهنّ، بانتظار القطار الذاهب إلى الشمال. وكثيراً ما كان القطار يتأخّر فيجد الباعةُ المتجوّلون فرصةً لعرض بضائعهم المتواضعة على المسافرين المنتظرين. كانت تحدث في بعض الأحيان مشاجرات وسرقات صغيرة. وعندما أشاهد هذه المناظر كنتُ أتألّم كثيراً، لأنَّ أغلب المتشاجرين كانوا من الفقراء، وكان شجارهم، عادة، بدون أسباب مبرّرة، وهذا يدلّ على أنّهم كانوا غاضبين، وثمّة ثورة عارمة تعتمل في نفوسهم، لا يعرفون كيف يفجّرونها.

■ كيف تهجّيت أَلِفْباء الخسارات؟ وما هي؟

ـ أعتقد أنَّ كلّ البشر لا أنا وحدي قد خسروا أشياء في طفولتهم. ولكنْ بالنسبة لي فقد أصبحت خساراتي وقوداً للنّار الّتي تشتعل في داخلي منذ ولادتي، وإنَّ الأشياء الّتي خسرتها في العالم المادّي قد تحوّلت إلى جزء من روحي وسلوكي وثقافتي؛ فليس ثمّة شيء يضيع، كما أعتقد. أذكر، في عزّ ظهيرة طفولتي، أنَّ أحد أبناء عمومتي أهدى إليّ غزالاً وسيماً، كنت أرعاه وأطعمه بيدي. وكان غزالي يحبّ الباميا اليابسة أكثر من أيّ شيء آخر، لذلك كنت أسطو على الباميا الّتي تجفّفها والدتي. وذات يوم، عندما عدت من المدرسة ـ وكنت آنذاك في الصفّ الثاني الابتدائي ـ وجدت إخوتي ينتظرونني في باب الدّار، وقد خيّم الوجوم على وجوههم. وعندما اقتربت منهم، قالوا لي: «لقد ذبح والدُنا الغزال». فشعرتُ بهلع شديد، وكان والدي خارج البيت، فبادرتني أمّي قائلة: «إنَّ الغزال جفل وقفز إلى الطابق العلوي من الدّار، ومن هناك رمى بنفسه، فكُسرت قوائمه الأربع، فما كان من والدك إلّا أن ذبحه إشفاقاً

عليه».

توسّلت إلى أمّي أن لا تمسّ لحم الغزال، وأن تقدّمه إلى الفقراء.

■ ماذا يقول أبو علي عن حبّه الأوّل، عن تلك النّار الأولى الّتي دخلت في المرآة؟

ـ بعد سنة من فقدان الغزال، صرت أهجر البيت في أيّام العطل، وألوذ بشاطئ نهر دجلة، متأمّلاً الزوارق وهي تعبره أو تنساب في مائه صاعدةً نازلة. وأعود إلى البيت مشياً على الأقدام مع حلول الظلام، وكان بيتنا لا يبعد أكثر من كيلومتر واحد عن نهر دجلة. كنت، دائماً، أتأمّل مرايا هذا النهر إلى أن يختفي الوجه المجهول الّذي أتطلّع إليه ـ وهو الّذي تجلّى لي ذات يوم ـ فكانت عائشة (جارتنا) الّتي كانت في مثل عمري. عندها قطعتُ تجوالي وأقمتُ في البيت، مطلاًّ من النافذة الّتي تواجه نافذة بيتها، وكانت هي تفعل الشيء نفسه. كنّا لا نتبادل الكلام، وإنّما ينظر واحدنا إلى الآخر، وعندما يقترب منّي أحد من أهل بيتي، أتظاهر بأنّني أنظر إلى المجهول، وكانت هي تفعل الشيء نفسه أيضاً عندما يقترب منها أحدٌ من أهلها.

لقد دام هذا الحبّ الصامت أكثر من سنة ونصف، وأنا أتعذّب وبخاصّة قبل النّوم، إذ أستحضر وجهها المدوّر الصغير وعينيها السوداوين القاهرتين. كنت أبكي، وأشتهي أن ألمس خدّها وأداعب شعرها، كما كنت أتمنّى أن أراها في النّوم، لكنّ النّوم كان يحرمني من مرآها، إذ كانت أحلامي معظمها يدور حول المتاهات والمنافي والنساء اللّواتي أحببتهنّ بعد عشرين سنة، وقد رأيتهنّ فعلاً كما كنت أتصوّرهنّ. وأمّا عائشة فقد حصل لها ما حصل للغزال

> **كنت أبكي وأنا أستحضر وجه عائشة، وكنت أشتهي أن ألمس خدّها وأُداعب شعرها**

ولكن بشكل آخر. فبعد عودتي، ذات يوم، من المدرسة، رأيت عربةً وبعض الحمّالين يحملون أثاث بيتها، فأدركت أنّ أسرتها على وشك الرحيل إلى بيت آخر، وهذا ما كان. ظللتُ واقفاً في الطريق أنتظر خروجها، ولكن يظهر أنّها خرجت مع أُمّها في مقدّمة الركب، وهكذا حُرمت من وداعها بعيوني.

لم أعرف، فيما بعد، أين انتقلت أسرتها. والغريب أنّني كنت أشعر بالخوف، فلم أسأل أحداً عن مكان انتقال أسرتها، ولم أرها بعد ذلك إلاّ مرّة واحدة: في شارع أبي نواس عندما مرّت سيّارة تقلّها مع أسرتها. وكانت تلك هي آخر مرّة رأيتها فيها. ومع هذا، فقد ظلّت حيّة في نفسي إلى الآن.

■ ما هي العلاقة الأولى الّتي تشكّلت آنذاك في علاقتك مع الواقع المعيش؟

ـ لقد كانت الحياة في تلك السنوات قاسية ومظلمة، لكنّني كنت لا أخشى الظلام، بعكس كثير من أطفال ذلك الزمان. فقد كنت أرى الظلمات في رابعة النّهار بالرغم من الشمس الساطعة.

منذ ذلك الوقت بدأ شيء جديد ينمو في داخلي، هو بذرة التمرّد ورفض الواقع الّذي كان النّاس يعيشونه، ويحسّونه دون أن يعوه. كنت أبحث عن ملامح ذلك القلق والتمرّد في عيون النّاس وفي الكتب، حيث كان النّاس يعبّرون عن غضبهم من خلال العراك مع أنفسهم أو مع الآخرين؛ وأمّا كتب ذلك الزمان فلم تكن تجيب أو تفصح عن ذلك التمرّد. وهكذا، فقد كنت أنتقل من شارع إلى شارع ومن كتاب إلى كتاب ومن ورقة إلى أخرى، وما أكثر الأوراق الّتي مزّقتها بعد أن كنت أخطّ فيها كلمة واحدة أو كلمتين!

كنت ألوذ بالرسوم والرموز، إذْ لم يكن بمقدوري أن أفكّ طلسم الكلمات. وكان أغلب رسومي أقرب إلى السورياليّة، فقد كانت تضجّ بمتاهات لانهاية لها؛ وقد تعجّب بعض الّذين رأوها ـ آنذاك ـ واعتقدوا أنّها ألغاز أو لغة جديدة.

هكذا مرّت بي السنوات الحافلة بالحزن والصمت والموت، موت البشر والطبيعة والحيوانات.

كانت محلّتنا تقع بالقرب من المقابر (من ضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى مقابر الغزالي)، وكانت الجنائز تمرّ من هناك فيُصَلّى عليها في المسجد ثمّ تُنقل إلى المقبرة.

ولم يكن المسلخ العام الّذي تُذبح فيه الأبقارُ والأغنامُ والجواميس بعيداً عن محلّتنا أيضاً. والغريب أنّ هذه الحيوانات كانت تحسّ أنّها تُساق إلى الذبح، فكانت تقاوم وهي في الطريق إلى المسلخ، وعندما يعجز القصّابون عن ترويضها كانوا يضطّرون إلى ذبحها على قارعة الطريق، أمام الأطفال والنساء والعجائز وأمام كلّ العابرين. فكثيراً ما تخضّبت الأرضُ بالدّم، دم البشر ودم الحيوانات. وكانت خيوط/خطوط الدّم إذا ما آستقرئتْ يتبيّنُ أنّها لا تقود إلى شيء أيضاً: إنّها متاهات الدّم والفجائع. وهكذا كان الحصار كاملاً؛ فالحروف والخطوط المرسومة على الورق أو المرسومة على الأرض كلّها لا تقود إلى شيء.

بالإضافة إلى هذا كلّه، فقد كان هناك موت الأقارب والجيران ومآتم

العزاء الّتي كانت تُقام في عاشوراء وتمرّ بالقرب من حدود محلّتنا، ويُعاد فيها تمثيل مقتل الحسين.

وبالرغم من أنّ هذه المواكب تمثيليّة، إلاّ أنّها كانت صادقة تعيد إلى النفس المشهد التاريخي ذاته، وكانت هذه المواكب تُقام كلّ عام، وكنت شغوفاً بمتابعتها منذ بدايتها حتّى نهايتها.

■ **ماذا يقول البياتي/الطفل عن علاقته بعائلته: الأمّ، الأب، الجدّ، الجدّة...؟**

ـ لقد كان ارتباطي بجدّتي (أمّ والدتي) أقوى من ارتباطي بوالدتي. كانت جدّتي عمياء، وكانت تحبّني كثيراً، أكثر من بقيّة إخوتي، لذلك كانت تروي لي الكثير من القصص القديمة وبخاصّة قصص ألف ليلة وليلة، ولكن بأسماء غير تلك الواردة في ألف ليلة وليلة المعروفة؛ أي أنّها كانت تروي لي ما نقلته الذاكرة الشفهيّة. كما كانت تروي لي بعضَ القصص الإغريقيّة وبخاصّة رحلات عوليس، ولكن بقالب حكائي يختلف عن المدوّن. وعندما تحسّ بأنّني نمت، تتوقّف عن الحديث لتستأنفه في اللّيلة التالية. أمّا جدّي فقد كان إماماً في أحد مساجد بغداد، وكنت أذهب معه إلى المسجد، وألعب في البستان الصغير الملحق بالمسجد وأرعى أشجار التين والبرتقال، مصغياً إلى أصوات العصافير الّتي تتجمّع بأعداد كبيرة نظراً للسّلام الّذي يخيّم على المسجد. كنت أقترب من جدّي أحياناً وهو يقرأ في بعض كتبه بعد انتهاء الصلاة، وكنت أعي معنى الأشياء من خلال صوته. لكنّني لو قرأت ما قرأ جدّي لاستعصى عليَّ فهمُه. لقد كان صوته يمنحني مفاتيحَ المعاني، فأتوغّل معه قليلاً ثمّ أرتدّ خائباً، لأنّني لا أستطيع الربط بين الجمل الّتي تتلو إحداها الأخرى. كنت أحسّ بأنّ الجمل في كتب جدّي أشبه بدولاب الهواء، وأنا أدور معه إلى أن أُصاب بالتعب الشديد، فأعود إلى ساقية البستان الصغير ألقي فيها بعض الزوارق الورقيّة الصغيرة الّتي كنت أصنعها. لكنّني كنت أشعر بالأسى لأنّ رحلة هذه الزوارق قصيرة تنتهي بعد بضعة أمتار حين تصطدم بالحاجز الترابي، وهناك تقف لتصبح ملاذاً للنمل الصغير الّذي كان يحوّم على طرف الساقيّة.

وعندما نعود إلى البيت كان جدّي يتعطّفني ويحملني بالرغم من ثقلي النسبيّ، وكان يحبّني حبّاً شديداً، ولأنّ رحلتي بدأت معه هو، بخلاف والدي الّذي أصبح صديقاً قريباً لي في مرحلة الشباب.

في البيت ، كنت أعدّ أدوات النارجيلة لجدّي، فيشعر بالسعادة الغامرة ويمنحني قطرات قليلة من قهوته اللّذيذة قائلاً: «لا تشرب القهوة كثيراً لأنّها تسبّب لك الأرق»؛ لكنّني كنت أُغافله أحياناً وأرتشف فنجاناً كاملاً، وعندما يضبطني متلبّساً يدّعي أنّه لم يرني.

■ **أصدقاء الطفولة بمشاكساتهم يظهرون أو يغيبون، مَنْ تذكر منهم؟**

ـ كان أولاد خالي من أصدقائي، وبخاصّة أحدهم الّذي كان في عمري، وقد ظلَّ صديقي إلى أن توفي وهو في الثلاثين من عمره بعد إصابته بمرض خطير.

لقد شعرت بفقدان كبير له؛ فقد كان أوّل صديق لي ارتدت معه أماكن اللّهو المحرّمة على الشباب في ذلك الوقت، وبدونه لا أستطيع التردّد عليها. كما أنّنا كنّا نذاكر دروسنا معاً، وكنت أقوم بدور المعلّم ويقوم هو بدور التلميذ، فأضربه مازحاً أحياناً عندما لا يحفظ الدرس، وكان يتقبّل ذلك لأنّه يشعر بالذنب؛ لكنّني كنت أسترضيه فيما بعد.

كنت أعتقد أنّ على الإنسان أن لا يخطئ؛ ذلك لأنّه يختلف عن المخلوقات الأخرى. هذه النظرة منحتني القوّة والقدرة ـ فيما بعد ـ على تجنّب المكاره والكوارث، فكنت أبذل جهداً كبيراً كي لا أخطئ، وعندما أقع في خطأ ما ـ وغالباً ما يكون صغيراً ـ فقد كنتُ أشعر بالذنب وأعاقب نفسي بالصوم أو المشي ساعاتٍ طويلة دون توقّف أو بعدم النوم يومين أو ثلاثة.

لقد كنت أُعدّ نفسي لمواجهة المستقبل دون أن أدري، أي أنّ قواي الخفيّة كانت ترسل لي الإشارات ما بين آونة وأخرى، فأعدّل مسارَ طريقي كلّما انحرفت.

■ **ما هي الإشارات الأولى لميولك، وما كانت هواياتك آنذاك؟**

ـ من هواياتي تربية الطيور واقتناء الكتب الّتي كنت أحاول فكّ حروفها واستيعاب معانيها، دون جدوى؛ لكنّني كنت أشعر أنّني سأقترب منها ذات يوم فأتّحد فيها. كما كنت أميل إلى الرياضة، إذ مارستُ لعبة كرة القدم وكرة السلّة محاولاً خلق جسم صحّي قوي، وقد أفادني هذا كثيراً، فلم أمرض في أيّ يوم في حياتي. واستمرّت ممارستي للرياضة الروحيّة والبدنيّة منذ أن كان عمري ست سنوات حتّى بلوغي العشرين. وكنت أمتنع عن تناول الطعام والشراب يومين أو ثلاثة لترويض نفسي الثائرة المتمرّدة ولكبح جماح الانفعالات الّتي كنت أعاني منها؛ فقد كان جسدي وفوران الطّاقة في داخلي ومراهقتي المبكرة تسبّب لي الأرق والفجيعة.

■ **ثمّة ملامسات محفورة، ماذا يقول البياتي عن هذه الملامسات وعن هذه الشرارت المكهربة؟**

ـ في ليلة النصف من شعبان من إحدى سنوات تلك الطفولة (التي كان النّاس يسهرون فيها حتّى الصباح) كنت في بيت عمّي، وكانت فتاة جيرانهم تتودّد إليّ، فلم أُعِرْها اهتماماً بالرغم من كونها

وسيمة وذات عينين عسليّتين، وكانت ذكيّة، وقد بادرتني بالسؤال: «لماذا تجلس على عتبة الدّار؟» فقلت لها: «لماذا تسألينني؟» فقالت: «تعال معي». وأخذتني إلى نهاية الزقاق، وأمسكت بي بقوّة وقبّلتني. حاولتُ الانفكاكَ منها وقد شعرتُ بخوف شديد ولم تعد ساقاي

> أخذتني إلى نهاية الزقاق، وأمسكتْ بي بقوّة، وقبّلتني، فاختلّ الهواء من حولي!

قادرتين على حملي؛ لقد اختلّ الهواء واختلّت العتمة من حولنا، وشعرت بآلاف العيون تراقبنا بالرغم من هدوء اللّيل والظلام المخيّم. حاولت الفتاة الإمساك بي ثانية، لكنّني دفعتها وهربتُ إلى النصف المضاء من الزقاق، فلحقتْ بي وضحكت قائلة: «إنّك ماتزال طفلاً صغيراً»؛ هذا، بالرغم من أنّها كانت في عمري. بعد مرور أيّام على هذه الملامسة الاقتحاميّة، حاولتُ أن أطاردها أنا هذه المرّة، لكنّ الزقاق كان يمتلئ بالأطفال في أوّل المساء، الأمر الّذي حال دون الانفراد بها. وكانت تنظر إليّ شامتة. وفي الثامنة مساءً يخرج والدها ويأمرها بدخول البيت، فأظلّ وحدي أحوم في الزقاق دون جدوى، إلى أن أعود إلى بيت عمّتي فتسألني: «أين كنت»؟ فأتلعثم لأنّني كنت أشعر بأنّها تعرف سرّي، وأقول لها: «لا أدري». فتردّ عليّ: «كيف لا تدري»! وتبتسم، وهذا ما كان يزيد من شكّي بأنّها تعرف ما يحدث لي.

ورغم مرور سنوات طويلة على تلك الملامسة، إلاّ أنّني ماأزال أتذكّر تلك الحسناء الصغيرة في عمرها ذلك، وكأنّها لم تكبرْ، بالرغم من أنّها تزوّجت وأنجبت أطفالاً، وسافرت مع زوجها إلى مدينة أخرى، كما أخبرني ـ فيما بعد ـ أحدُ أقربائها.

■ كيف تفتّحت الوردةُ الأولى على شبّاك القرية؟

ـ قبل أن ينقضي صيفُ طفولتي، تنبّهتُ إلى أنّ والدي كان يذهب كلّ عام إلى قريتنا ليزور أعمامه. وكنت أذهب معه إلى محطّة باب الشيخ لتوديعه مانعاً نفسي من البكاء عندما يتحرّك القطار، ومتمنّياً من أعماق نفسي لو سافرت معه.

في إحدى الزيارات الّتي كان والدي يزمع القيام بها بكيت وهو مايزال واقفاً على الرصيف في انتظار القطار. حينها سألني عن سبب بكائي، فقلت له: «إنّني أريد الذهاب معك إلى القرية». ردّ عليّ بسؤاله: «كيف ستذهب معي وليست معك أيّة ملابس»؟! ثمّ استدرك قائلاً: «هيّا بنا لنعود إلى البيت، وغداً تسافر معي».

هكذا بدأت طفولتي بأوّل سفرة من بغداد إلى شمالها، حيث سفوح جبال «حمرين» الّتي تقع فيها قرية أبناء عم والدي. وهناك اكتشفتُ منذ الوهلة الأولى السحرَ المخبوء في تلك البراري الشاسعة الّتي كانت تتطاير فيها آلافُ الأسراب من طيور القطا بحثاً عن حبّات القمح المتناثرة، وبخاصّة أثناء موسم الحصاد.

كنت أشارك أولاد أقارب والدي في الحصاد وجمع القمح ووضعه في أكياس ومن ثمّ نقله إلى القرية. كنت أشعر بمتعة عظيمة وأنا أقوم بهذه الأعمال.

وعندما ينتهي موسم الحصاد، كان الفلاّحون يأخذون نصف محصولهم ويضعونه على الدوابّ مع بداية الغروب لنقلِهِ إلى أقرب مدينة إليهم وبيعه في أسواقها. كنت أذهب معهم أيضاً، وكانت المسافة بين القرية وأقرب مدينة حوالي عشر ساعات تحت سماء الصيف الرائعة الصافية التي تتنهّد أحياناً، وأحياناً تجرحها أصواتُ الذئاب القريبة والبعيدة. وكثيراً ما رأيت بأمّ عيني قطعاناً كبيرة من الذئاب تتبع قافلتنا الصغيرة، لكنّ الذئاب كانت تشعر بخوف إذْ يطلقُ أحد أفراد القافلة طلقة ناريّة من بندقيّته، فتتحاشى الذئاب الاقتراب، لكنّها تظلّ تتبع القافلة حتّى بزوغ الفجر، لتعود من ثمّ خائبة إلى أوجارها البعيدة.

وأمّا في بقية أيّام الصيف، فقد كنت أخرجُ مع الأولاد والصبايا إلى أطراف القرية (على بعد ثلاثة كيلومترات منها)، لنقضي النهار في حراسة مزارع الخضراوات الصيفيّة الّتي كانت تُزرع للاستهلاك البيتي.

كانت هناك أكواخٌ مبنيّة من اللّبن والقصب، وكنت أقضي ساعات جميلة، وبخاصّة مع الصبايا اللّواتي كنّ يتعاركن باستمرار ويحُمْنَ حولي وكأنّني الصبي الوحيد في بريّة الله الواسعة. وكثيراً ما كنّ يطعمنني ويقبّلنني من فمي وخدّي ومن عيوني وهنّ يشعرن بأنّني مخلوق أو طائر جاء من بلاد مسحورة بعيدة. وكانت بعضهنّ تحاول تقليد أمّها أو أختها المتزوّجتين في تدليلي والتقرّب منّي.

لقد أحببتهنّ كلّهنّ، ولذلك كنت أشعر بالخوف لئلا أفقد رضا إحداهنّ. كما أنّي نصّبتُ عليهنّ ملكةً، كنت فعلاً أسمّيها بالملكة، وكانت أجملهنّ، وبقيت أتذكّرها حتّى بعد أن كبرتُ ونافَ عمري عن العشرين عاماً.

أذكر أنّها جاءت ذات يوم إلى بغداد، وقد كبرت مثلي. وعندما رأتني هرعت إليّ كما كانت تفعل بالأمس، فأحسست بأنّ حبّها لي كان مايزال نابضاً وباقياً.

بعد انقضاء الحرب العالميّة الثانية، وقد تجاوز عمري الخامسة عشرة، قال لي والدي: «كفاك ذهاباً إلى القرية، وعليك أن تنصرف إلى كتبك وهواياتك الجديدة». عندها شعرت تماماً بأنّ قصّة الذهاب إلى القرية قد انتهت وأنّني دخلت مرحلة جديدة من حياتي.

■ **بماذا رقّشت القريةُ روحك؟**

- إنّ زياراتي تلك إلى قريتنا لعبت دوراً أساسيّاً في تكوين مخزونٍ كبير من الذكريات والصور الطبيعيّة العميقة. فقد كانت أغاني الفلّاحين وملاحم شعرائهم المغنّاة والمرويّة تزهر في روحي، بالإضافة إلى الطبيعة الساحرة في تلك المناطق، وبخاصّة في فصل الربيع، حيث تسيل الأنهار الصغيرة والسيول التي تختفي في فصل الصيف.

أتذكّر - وأنا أتحدّث إليك الآن - أسرابَ القطا الكثيرة وهي ترفرف وتطير في سماء ذلك العالم المجهول الذي لعب دوراً مهمّاً في حياتي. كما لا أنسى هنا أن أقول إنّني كنت أسجّل في دفترٍ صغير بعضَ قصائد العشق التي كانت تُنشد أمامي، وكنتُ أطلب من منشديها أن يعيدوا بعضَ المقاطع، كما كنت أقوم بدوري بتنقيح بعض المقاطع وحذف الرديء منها، أو استبدال بعض الكلمات بكلمات أكثر حلاوة؛ وبهذا فإنّني كنتُ أقوم بدور المدوّن وبدور معيد خلقِ هذه القصائد. وقد بقي دفتري الصغير معي حتّى سنة دخولي دارَ المعلّمين العليا. بعدها، اكتشفتُ أنّ دفتري قد ضاع، ولا أدري حتّى الآن أين ضاع منّي وكيف!

■ **ماذا ترى في المدينة مقارنةً بما عشته وتداخلت فيه من فضاءات القرية؟**

- القرية تمثّل الصفاء، بدءَ النموذج الإنساني. وأمّا المدينة فهي

> المدينة صورة مشوّهة للخلق، وكرهي ينصبّ على المدن الّتي جاءت رقعاً في رداء ممزّق: مدن الضرورة الّتي تعفّن فيها البشر والماء والهواء.

صورة مشوّهة للخلق أو للأشياء التي تولد من اليد الأولى. ولهذا فإنّ كرهي للمدينة ليس كرهاً لمدن الحرّيّة، وإنّما هو ينصبّ على مدن الضرورة التي تعفّن فيها الماءُ والهواءُ والبشر؛ أي أنّ كرهي هو لتلك المدن التي جاءت رقعاً في رداء ممزّق.

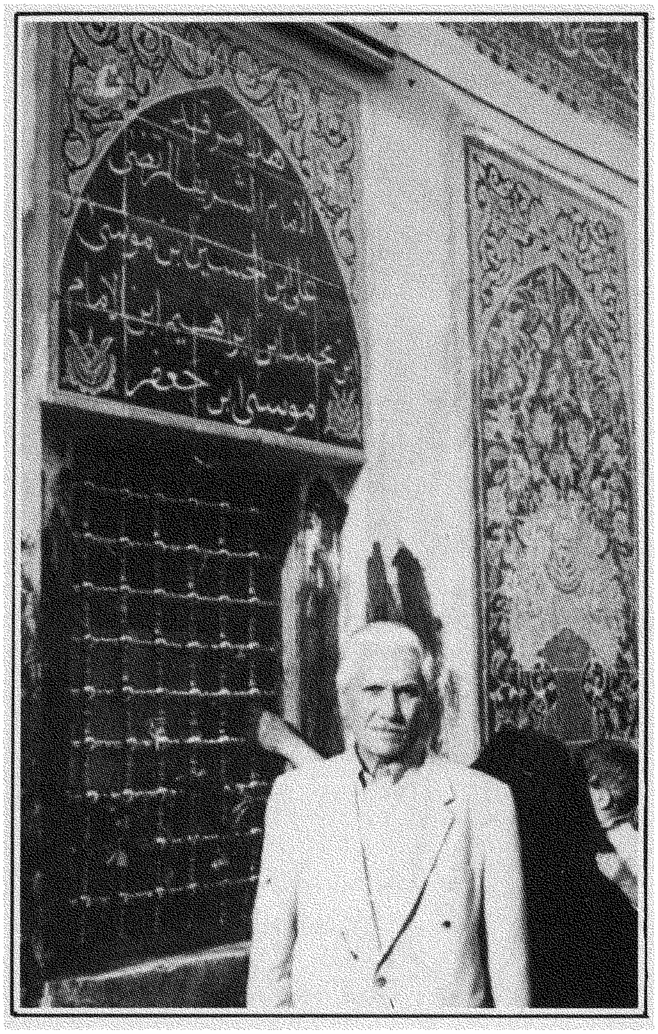

■ **ماذا يقول أبو علي عن النبوءات وعن مناخات الوقت والمكان التي لمعت فيها تلك النبوءات؟**

- حقّاً، كنتُ أحسُّ بأنّ كلّ الصبايا اللواتي رأيتهنّ في طفولتي سألتقي بهنّ في سنوات قادمة بعيدة في مدن العالم ومنافيه، وإنْ كنّ بأسماء أخرى وبأقنعة جديدة؛ ذلك أنّ كلّ من رأيتهنّ في أسفاري ومدني التي عشت فيها، كان يتمّ التعارف بيننا في ثوانٍ معدودة وكأنّنا التقينا من قبل. وكان هذا الإحساس لا يخامرني وحدي، بل إنّه كان يخامر النساء اللواتي التقيتهنّ، حتّى إنّ بعضهنّ كنّ يسألنني: «أين التقينا قبل هذا»؟ فأقول لهنّ: «لقد التقينا في مدن السحب وفي مدن العشق أو في الطفولة أو في حياة أخرى».

كنت أحسُّ أحياناً وكأنّني عشت حيوات متعدّدة ورأيتُ أزمنة متعدّدة، وأنّني لست في ولادتي الوحيدة هذه. كان هذا الشعور يطغى عليّ عندما ألتقي بالفريدين المتوحّدين اللامنتمين، فأشعر أنّي التقيت بهنّ أو بهم عدّة مرّات، حتّى أنّني أتذكّر بعض القصص والأحاديث التي كانت تدور بيننا، وعندما كنت أستعيدها من

ذاكرتي، كان الآخر يتعجّب ويحسّ أنّ هذا الحدث أو هذا الكلام قد وقعا له أيضاً أو سمع بهما، ولكنه لا يدري أين.

لقد أفادني هذا في كتابة الشعر لأنّني عندما أكتب القصيدة أحسُّ بأنّني لا أُعبِّر عن تجربتي في ولادتي الحاليّة، بل عن تجاربي في ولادات متعاقبة، إذ أكتشف في بيتٍ من قصيدة أو في مقطع أو في قصيدة بكاملها أنّ هذا الحدث منبعث من الأسطورة؛ لكنّه قد وقع لي فعلاً، فهو ليس بأسطورة.

أذكر، مثلاً، أنّ ثمّة مقطعاً طويلاً من قصيدة «مراثي لوركا» المنشورة في ديوان الموت في الحياة، وفيه وصف لنهر يشبه وصف القرآن الكريم لنهر الجنّة. أذكر أنّني اغتسلت وشربت من ماء هذا النهر وبخاصّة عندما انتهيت من كتابة هذه القصيدة.

ربّما يعود هذا حسب تحليل علماء النفس إلى الذاكرة الجمعيّة التي تكوّنتْ بعوامل وراثيّة وثقافيّة وعرقيّة؛ ذلك أنّ الكثير من نقاط الضوء التي ظهرت واختفت لم تنطفئ وإنّما حلّتْ في ذاكرة الإنسان كمشروع، فبقاؤها يشبه بقاء الصورة قبل تظهيرها، والكتابة هي تظهير لنقاط الضوء هذه أو للصّور.

هذه الذاكرة الجمعيّة والذاتيّة نبعت في أرض قامت فيها حضارات عظيمة منذ أقدم العصور، وظهر فيها شعراء ومغنّون وفنّانون كثيرون.

كما أنّ طقوس القوميّات والطوائف التي تسكن أرضَ الرافدَيْن قد امتزج الواحد منها بالآخر، وقدّمت ذاكرةً جَمْعيّة عجيبة في مكوّناتها.

ولهذا فإنّ الانزلاق في متاهة القراءة المحضة والانقطاع عن هذه الذاكرة، أو عدم إيجاد المقدرة على الغوص والوصول إلى هذه الذاكرة، تفقد الشاعر الكثيرَ من جذوره الحقيقيّة وتجعله شاعراً من ورق أو شاعراً على الورق ليس إلاّ.

في طفولتي، أذكر أنّي حضرت طقوسَ القوميّات والطوائف المختلفة في العراق، وكنت أستمع إلى صلواتها وأدعيتها وطقوسها الدينيّة والأسطوريّة سواء أكانت باللغة العربيّة أم بلغات أخرى لا أعرفها، ولكنّني كنت أدرك الصور والمعاني والانفعالات من خلال طريقة الترتيل، وكلّما أبدع المرتّل أو المغنّي أو رجل اللاهوت، ازداد فهمي لهم. وأمّا المحترفون فقد كانت الكلمات تموتُ على شفاههم ولا تبلغ القلب، وبالتالي فإنّها تفقد طعمها ورائحتها وشكلها ومعناها.

إنّ حضوري هذه الأجواءَ الطقسيّةَ منحني القدرة على الحبّ، وعلى عدم التعصُّب لأيّ اتّجاهٍ دينيٍّ أو سياسيّ، وعلّمني كيف أحترم الآخرين وأتفهّم عذاباتهم بدون أن أعكس عليها أشياء خارجة عنها.

■ **عن الألوان الأولى في طفولته، ماذا يقول البياتي؟**

ـ الأحمر والأسود هما اللونان الأقرب إلى سنوات طفولتي، فاللون الأسود كان رمزاً للذلّ الكوني، وأمّا الأحمر فكان رمزاً للذلّ الإنساني. وعندما يختلط هذان اللونان يحصل الانفجار. ويخيّل لي أنّ الألوان كلّها كامنة في هذين اللونين، فبدونهما تنعدم الألوان الأخرى. هذا، بالإضافة إلى أنّهما قريبان من الليل والنهار دون أن يسبق أحدهما الآخر أو يلحق به. والحقّ أنّ هذه الثنائيّة الفاجعة كانت تسبِّب لي الأرق دائماً.

■ **عودة إلى المتاهات/الخطوط الأولى. ماذا تقول عنها، وهل كان الطفل ينصب الأشراك للشاعر ويقوده إلى مصيره؟**

ـ عندما كنت أحاول الكتابة في زمن الطفولة، كنت لا أستطيع أن أفكَّ الحرف، فأشعر بعذابٍ مؤلم، لذلك لجأت إلى الخطوط ورسم المتاهات التي لانهاية لها. وكان البعض عندما يراها يتساءل عن معناها: «أهي رسم أم كتابة»؟ فأقول لهم: «إنّها ليست رسماً ولا كتابة، بل هي استنجاد بقوى خفيّة أريدها أن تمدّ لي يد العون لأستطيع الخروج من بئر شقائي»، أو «إنّ هذه الخطوط أشبه بتعاويذ وصلوات السحرة لكي ينهض الميت المجهول المسجّى عند أقدامهم». وهذا ما أسميته ـ فيما بعد في كتاب **تجربتي الشعريّة** ـ بالاستنجاد بقوى الكون الخفيّة الخلاّقة.

وقد انتظرتُ سنوات طويلة حتّى أنجدتني قوى الكون هذه، وعلّمتني كيف أبدأ. وكان تماسّي مع هذه القوى مصدر فرح كبير لي وعذاب كبير في الوقت نفسه، لأنّني كنت ماأزال في بداية الطريق، وكان مثلي مثلَ أعمى قاده النجمُ إلى الباب المضاء ـ كما يقول بابلو نيرودا في إحدى قصائده ـ لكن هذا النجم كان يختفي أحياناً، وكنت أتساءل أنّى لي أن أصل إلى النجم المضاء. وهكذا كانت السنوات تمرّ بلا رحمة.

فيما بعد اكتشفتُ أنّ هذه الطرق/المتاهات المعلومة المجهولة التي كنت أظنُّ أنّها عبثيّة كانت ترسم مستقبلي الشعري ومساري. لقد كانت ترسم الخارطة التي سأسير على هداها في مستقبل السنوات.